الواقع الجزائري في شعر محمّد العيد آل خليفة

Algerian reality in the poetry of Muhamad Eid Al-Khalifa

سامية بوعجاجة

جامعة محمد خيضر – بسكرة– (الجزائر) samia.bouadjadja@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام:2024/02/28 تاريخ القبول:2024/12/10 تاريخ النشر:2024/12/19

الملخص:

تتناول الدراسة الواقع الجزائري من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية، ففي البداية وقفنا على أهم الفروق بين مصطلحي الواقع والواقعية، ثم تحدثنا عن الواقع الجزائري في ديوان محمد العيد آل خليفة، من خلال التركيز على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، لنختم بأهم ما ورد في المقال من أفكار.

كلمات مفتاحية: الواقع الجزائري، محمد العيد، الشعر الجزائري، الفقر، الاستعمار الفرنسي.

Abstract:

The study dealt with the Algerian reality from the political, social and cultural aspects.

In the beginning, we talked about the most important differences between the two terms reality, realism, Then we talked about the Algerian reality in the Diwan of Muhammad Al-Eid Al-Khalifa, by focusing on political, social and cultural life, to conclude with the most important ideas montioned.

Key words: Algerian reality, Muhammad al-Eid, Algerian poetry, poverty, French colonialism.

المؤلف المرسل: سامية بوعجاجة، **الإيميل:** samia.bouadjadja@univ-biskra.dz

1.مقدمة:

احتلت فرنسا الجزائر في سنة 1830، وادّعت أنّها جاءت لتحرّر الجزائري من تخلّفه، وتأخذ بيده فتنقله من دور الهمجية والبربرية إلى أدوار الحضارة والتمدن.

وما إن استولت على الجغرافيا والمكان حتى أرادت الاستيلاء على الإنسان من خلال طمس هويته والتشكيك في ماضيه وتاريخه، واستغلاله شرّ استغلال، ونهب البلاد ومقدراتها، وممارسة سياسة التجهيل والتفقير والاستيطان والإبادة الجماعية وسياسة الأرض المحروقة.

هي أساليب تفننت فيها فرنسا الاستدمارية، لتثبيت جذورها في أرضنا، وغرس مشروعها الثقافي والاجتماعي والسياسي، وفرض الأمر الواقع. ومن هنا يحق لنا التساؤل:

ـ ما المقصود بالواقع الجزائري وكيف كانت ملامحه من خلال شعر محمد العيد؟

ـ إلى أي مدى استطاع الشاعر محمد العيد آل خليفة تصوير الواقع الاجتماعي والسياسي ونقل ما يعانيه الجزائري من فقر وظلم واستبداد؟

ـ وهل كانت الحياة الثقافية مغايرة للواقع السياسي والاجتماعي، أم تحاكيه ؟

المقصود بالواقع الجزائري هو ذاك الواقع الذي عايشته الجزائر إبّان فترة الاحتلال على جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية.. فجاءت القصيدة لتصور المجتمع وقضاياه وهمومه، من فقر وجوع وتشرد وظلم وغربة وجهل وحرمان وسجن وتعذيب.. وكل هذه القضايا وغيرها حفلت بها القصيدة الجزائرية الحديثة لتصور هذا الواقع الأليم في ظلّ الوجود الفرنسي. ولأنّ الشاعر لسان حال أمته والمعبر عن همومها وأفراحها وآلامها، فقد حاول فريق من الشعراء وخاصة أولئك الشعراء المحسوبين على التيار الإصلاحي، تسليط الضوء على هذا الواقع المرير المثخن بالفقر وذلّ العبودية، يقول أحدهم معبرا عن هذا الواقع:" إنّ مئات الآلاف من المسلمين الجزائريين قد سدت أمامهم سبل الرزق، وغلقت في وجوههم أبواب المعيشة، وأصبحت المجاعة تطاردهم من مكان إلى مكان، والأمراض خصوصا مرض السل يفتك بمئات الآلاف من خيرة الشبيبة الجزائرية، ونتج عن هذه الحالة أن امتلأت الطرقات بالعاطلين، وضاقت الشوارع بالمتسولين. وغصّت المدن بالمتشردين الذين نزحوا إليها من جحيم البوادي باحثين عمّا يسدّون به الرمق ومستنجدين بإخوانهم من جور الأيام وظلم اللّئام.."(ناصر، 2006 صفحة 93)

2.مفهوم الواقع والواقعية:

كثيرا ما نجد تداخلا بين كلمتي (الواقع) و(الواقعية) لدى جمهور النقاد والدارسين "فالواقعية تبحث عن الحقيقة والواقع، والحقيقة تمثلها كلمة واحدة في مجموعة اللغات اللاتينية "real" وذلك رغم فارق المعنى الكبير بين الكلمتين في اللغة العربية"(بدير، 2002 صفحة 17)

فالواقعية تيار فكري وأدبي ظهر في القرن التاسع عشر الميلادي، ينقل الواقع بصدق بعيدا عن المثالية والتعقيد والزخرفة اللّفظية، يقول جوركي: " الواقعية هي التصوير الموضوعي للواقع "(بيتروف ، 2012 صفحة 94)

وهذا الاتجاه وليد التيار الماركسي الاشتراكي، الذي أتى كردّة فعل على التيار الرأسمالي الليبرالي. أما الواقع فهو ما نعيشه من أحوال وقضايا وهموم في حياتنا اليومية " والواقع رغم اختلافه من حال إلى حال بين المذاهب الأدبية إلاّ أنّه يختلف من منظور كلّ منها له، فهو منظّم، مرتب ومقسّم تقسيما طبقيا لدى الكلاسيكيين وهو في نفس الوقت متأزّم، حالم كئيب أحيانا ورديء أحيانا أخرى، شاعري في أغلب الأحيان لدى الرومانسيين، بينما تجده مكشوف الأبعاد الحقيقية لدى الواقعيين"(بدير، 2002 صفحة 13)

3.واقع الجزائر في شعر محمد العيد:

الشاعر محمد العيد آل خليفة من شعراء الجزائر المعدودين، ومن رجالات جمعية العلماء المسلمين، ومن المؤسسين لها، عُرف بخطّه الإصلاحي ونضاله بالكلمة من أجل تحرير الجزائر وإصلاح أحوالها، والنهوض بالمجتمع عن طريق نهضة علمية واقتصادية شاملة، فقد " أدرك المصلحون أنّ نجاح رسالتهم الإصلاحية مرتبط ببعث نهضة علمية جديدة تقوم على الفهم السليم لمبادئ الإسلام، ومحاربة الجهل وتعليم الناشئة، فجمعوا التبرعات الشعبية وأقاموا المدارس الحرّة لهذا الغرض ووفروا المدرسين الأحرار من أبناء الجزائر المتطوعين، وكان كثير من الشعراء معلمين نذكر منهم محمد العيد، والشاعرين الشهيدين: عبد الكريم العقون والربيع بوشامة " (شعباني، (د.ت) صفحة 30)

فمحمد العيد آل خليفة كان من رجال التعليم والإصلاح، لم يدخر جهدا بالعمل وبالكلمة من أجل تغيير الواقع، وتنبيه المجتمع من غفلته، واستنهاض الهمم والعزائم، لطرد المحتل الجاثم على صدر وطننا ردحا من الزمن " والذي لا شك فيه أنّ الأديب لا يكتب

أدبه لنفسه، وإنّما يكتبه لمجتمعه وكل ما يقال عن فرديته المطلقة غير صحيح، فإنّه بمجرّد أن يمسك بالقلم يفكّر فيمن سيقرءونه ويحاول جاهدا أن يتطابق معهم ويعي مجتمعهم وعيا كاملا بكل قضاياه وأحداثه ومشاكله، لسبب بسيط وهو أنّه اجتماعي بطبعه" (ضيف، (د.ت) صفحة 191)

وهكذا كانت القصيدة متنفسه في البوح وتصوير الواقع بآلامه وخيباته؛ في ظل استعمار بغيض، يمارس الغطرسة والاستبداد وتكميم الأفواه، والقتل والأسر والتجويع والتجهيل، ومن أهم مظاهر هذا الواقع نجد:

1.3الواقع السياسي:

احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830، محتجة بأن الجزائر تعرّضت لسمعتها واعتدت على هيبتها فيما يسمى تاريخيا ب"حادثة المروحة "، واخفت أهدافها المبيتة منذ قرون في السيطرة على الجزائر ومقدّراتها ومواردها المعدنية وكذا خيراتها الزراعية والطبيعية. فالجزائر تحتل موقعا استيراتيجيا، وهي بوابة إفريقيا ولها ماض نضالي عريق في محاربة النصارى الصليبيين، والوقوف إلى جانب إخوانها المسلمين المستضعفين وخاصة في الأندلس، وكانت تهيمن على البحر المتوسط بفضل أسطولها البحري القوي.

فهي أسباب كثيرة وعديدة جعلت فرنسا تحتل الجزائر، وصار الجزائري مستعبدا في أرضه، ذليلا في وطنه. تسلب منه كرامته، وأرضه وحقوقه، وتنهب منه هويته ودينه وهما كل ما يملك، وأغلى ما يملك.

لم يقف الشاعر موقف المتفرج إزاء ما يعانيه شعبه من ظلم وبطش مارسهما المستعمر، لكنّه سجّل غيظه وبغضه لهذا الدخيل، وراح يصوّر هذه الفترة من تاريخ الجزائر بالليل الطويل، متأسيا بامرئ القيس، الذي يقول:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولهُ * عليَّ بأنواعِ الهمومِ لِيبتلي
فقلتُ له لمّا تمطّى بصُلبهِ * وأردف أعجازاً وناءَ بكَلكلِ
ألا أيُّها اللّيلُ الطويلُ ألا انجلِ * بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ
(الشنقيطي، 2011م صفحة 30)

يقول الشاعر، في قصيدته " يا ليل "

يا ليلُ طلت جناحَا * متى تُريني الصَّباحا

أرى الكرى صَدّ عنّي * بوجهِه و أشاحا
قد ضقتُ بالهمّ ذرعًا * وما وجدتُ انشراحا
كأنّني رهنُ سجنٍ * لم أرجُ منهُ سراحا
ظمآنُ أنشد ماءً * يشفي الغليلَ قَراحا
وقد أرى الجدَّ أجدى * فأستحبُّ الكفاحا
وقد أرى الصَّبر أولى * فأطمئن ارتياحا
و لا يقرُّ قراري * إلاّ إذا الدِّيكُ صَاحا (آل خليفة، (د.ت) صفحة 45)

مثل شعبه يعايش الأسر، فينشد خلاصه في الكفاح من أجل تحرير بلاده، يتجلى ذلك في قوله: (فأستحبّ الكفاحا) فهو ليل طويل، وسجّان ثقيل يطبق على صدره، ينشد الخلاص منه ولكن هيهات هيهات.

والملاحظ أنّ موجة الحزن التي نلمسها في هذه القصيدة تكاد تكون الطابع العام للشعر الجزائري عقب الحرب العالمية الأولى، ذلك بسبب " الأوضاع المؤلمة التي فرضها المستعمر آنذاك تعدّ مؤثرا أساسيا في طغيان مشاعر الحزن والكآبة التي لوّنت الشعر الجزائري آنئذ، حتّى غدت طابعا عاما يميّز أغلب الإنتاج الشعري الذي ظهر في العشرينيات "(ناصر، 2006 صفحة 88).

وهو لوطنه محبّ، مخلص في هذا الحب، صادق في ولائه له، يقول:

بلادي فداكِ الرّوحُ واللهُ عالمُ * عليكِ سلامٌ خالصُ القصدِ سالمُ
يُحيّيك مشتاقٌ على القُربِ مشفقٌ * من البُعدِ مشغوفٌ بحبِّكِ هائمُ
لهُ فيكِ ألوانٌ من الرّأي عدةٌ * فأبيضُ وضّاحُ وأسودُ قاتمُ
(آل خليفة، (د.ت) صفحة 128)

فالوطن غال، وحبّ الوطن من الإيمان كما يقال. والشعراء أكثر إحساسا بمشاعر الفقد والألم لضياع البلد والأرض. وتأتي أحداث **الثامن** من **ماي1945**، لتعمّق مأساة وحزن الجزائريين وتذكرهم بواقعهم المرير، فقد أعطتهم فرنسا العهود وقطعت لهم المواعيد، إن هم حرّروها من ألمانيا النّازية، أن تعطيهم استقلالهم، وهكذا خرج الجزائريون في مظاهرات حاشدة في قالمة وسطيف وخراطة.. وغيرها من مدن الوطن، عقب انتهاء الحرب العالمية

الثانية، فرحين مستبشرين يحدوهم الأمل في غد مشرق، ينقشع فيه ظلام الليل الطويل، وينعمون ككل شعوب العالم بفجر جديد، فماذا كان ردّ فرنسا على هذه المظاهرات؟ " كان الردّ: هو القتل الجماعي، ففي خلال ظرف لم يتجاوز 24 ساعة قتل من الجزائريين ما يزيد على 45 ألف نسمة، منهم الشيوخ والأطفال والنساء، حيث هدمت المساكن، وأحرقت دواوين بأكملها وخاصة في: خراطة وقالمة وسطيف، وامتلأت السجون والمعتقلات بالآلاف من أبناء الشعب" (ركيبي، (د.ت) صفحة 32).

كانت الصدمة إذن بالنسبة للمثقف والأديب الجزائري، فلا أحد كان يتوقع أن تصل بشاعة المحتل وغطرسته إلى هذا الحد من الهمجية والدناءة، يقول محمد العيد:

أأكتمُ وجدي أو أهدّئُ إحساسي * وثامنُ ماي جرحُهُ ما لهُ آسِي
وأرقبُ ممّنْ أحدثُوهُ ضماده * وهم في جِماحٍ لم يميلوا لإسلاسِ
تمرُّ اللَّيالي وهو يدميٍ فلم نجدْ * لهُ مِرهمًا منهم سوى العُنف والباس
إذا ما رجونا بُرأَهُ ثرَّ دافقًا * بأحداثِ سوء وقعها مؤلمٌ قاســـي
فظائعُ(ماي) كذّبتْ كلَّ مزْعم * لهم ورمتْ ما روّجوهُ بإفلاسِ
ديارٌ من السُّكان تُخلى نكايةً * وعسفًا وأحياءٌ تُساقُ لأرماسِ
وشيبٌ وشبّانٌ يُسامون ذِلّةً * بأنواعِ مكرٍ لا تُحدُّ بمقياسِ
فيا لَك من خطبٍ تعذَّر وصفُه * فلم تجرِ أقلامٌ بهِ فوقَ أطراسِ

(آل خليفة، (د.ت) الصفحات 296-297)

فالقصيدة تعبر عن أجواء الحزن والحيرة والألم، وكيف لا ؟ والمجزرة أودت بحياة ما يقارب الخمسة والأربعين ألفا من المواطنين الجزائريين، الذين خرجوا بطريقة سلمية منادين بحقهم في الاستقلال، وهنا نلاحظ اعتماد الشاعر على معجم يعبّر عن أجواء الكآبة والتفجّع:(جرح، يدمي، مؤلم، قاسي، خطب، فظائع، أرماس، إفلاس، مكر، ذلّة..)

كما أنّ هول المأساة جعلت الكتاب يخرسون عن الكلام، وأفحمت كل مدع بدموقراطية فرنسا وعدالتها، وأثبتت للمراهنين على الحلول السلمية أنّ "ما أُخذ بالقوة لا يستردّ إلاّ بالقوة "

فهذه الأحداث تركت في قلب الشاعر جرحا نازفا لا يمكن برأه أو مداواته، بل هو جرح لكل شعراء الجزائر في تلك الفترة " لقد تركت المآسي التي شهدتها الجزائر في هذه الحوادث المهولة جراحات عميقة في قلوب الشعراء. لوّنت شعر بعضهم بالحزن والتشكّي،

وعبأت شعرا آخر بالثورة والتّمرد، كما ألجأت بعضهم إلى السكوت المطبق. فقد أصابتهم هذه المآسي بالذهول، وعقدت مناظر الإبادة الجماعية ألسنتهم"(ناصر، 2006 صفحة 34)

وكثيرا ما يتغنّى الشاعر بالحرية ويرقب فجرها المنير، حتى تخلصه من ليله البهيم، وتزيح عن صدره هذا الهمّ الثقيل الذي أقضّ مضجعه وأضناه، يقول الشاعر:

أينَ ليلايَ أينها * حيلَ بيني وبينها
هل قضتْ دينَ من قضى؟ * في المحبّينَ دينها
أصْلتِ القلبَ نارها * وأذاقتهُ حيْنها
مذْ تعرَّفتُ سرَّها * وتعشَّقتُ زينها
روَّعتني بِبينِها * لا رعى اللهُ بينَها
فتعلّقتُ بالطّيو * فِ اللّواتي حكينها
وتعلّلْتُ بالمُنى * فتبيَّنتُ ميْنها
مالِ(ليلاي) لم تصلْ * مُهجاتٍ فدينَها
وقلوبًا عُلّقنَها * وعيونًا بكينَها
كمْ تساءلتُ سالكًا * أنهُجًا ما حوينَها
لم يُجبني سوى الصَّدى * أينَ (ليلاي) أينها

(آل خليفة، (د.ت) الصفحات 41-42)

فليلى الشاعر التي يتغنّى ويتشبب بها، ليست امرأة محبوبة، إنّما هي الحرية التي يناجيها والاستقلال الذّي يرهص بدنوّ آجاله، والشاعر هنا يعمد إلى التلويح بدل التّصريح، والكناية بدل الذكر الصريح، وهذا المنحى الذي سلكه الشعراء له مبرراته الموضوعيّة، في مقدمته الخوف من التنكيل والتعذيب والأسر من طرف السلطات الفرنسية أو الاغتيال والتصفية الجسدية لكل شاعر أو أديب يتعرّض لذكر الاستقلال، أو يتطلّع إلى الخلاص من سجن فرنسا وأغلالها.

ونلحظ في القصيدة النزعة التراثية، والتأثر الشديد بشعر وأدب القدماء من حيث البلاغة والأسلوب وحتى الفكرة رغم أنّ الموضوعات جديدة مستقاة من وحي العصر ومشكلاته، وهو ملمح يشترك فيه كل زعماء الإصلاح، فجمعية العلماء المسلمين تهتم بالتراث العربي " وهي أساسا ترتبط بالنزعة السلفية الاجتماعية التي كانت ترتبط ارتباطا

وثيقا بكل ما يمتّ إلى التراث بصلة، تحفظه للناشئين في مدارسها، وتوجههم إلى أن يستقوا من منابعه الصافية، فقد كان رجال الإصلاح يقصدون إلى أن تكون النهضة الأدبية في الجزائر مبنية على أسس التراث العربي القديم، ويعتبرون هذا التراث رافدا قويا يرفد اللغة العربية المضطهدة في الجزائر"(ناصر، 2006 صفحة 45)

وديوان الشاعر يعج بالقصائد التي تصف الحال وتصور معاناة الجزائر في ظل الاحتلال الفرنسي الغاشم، وتصوّر تطلع الجزائريين ومنهم الشعراء للتحرر والانعتاق من نير احتلال ظالم بغيض.

2.3.الواقع الاجتماعي:

لجأت فرنسا إلى جانب سياستها الاستيطانية، إلى سياسة الأرض المحروقة ونهب خيرات البلاد، ومصادرة الأراضي وممتلكات الشعب؛ الأمر الذي نجم عنه البطالة الفقر والتجويع. والشاعر مرهف الأحاسيس بطبعه، تهزّه صوّر المكلومين والمحرومين، وتسكن اللوعة والحسرة فؤاده حين يشاهد طفلا جائعا، أو امرأة محرومة تمدّ يدها تطلب العون والإحسان..

فها هو الشاعر يقف على منظر أسهده وأحزنه لمّا عاين رجلا مشرّدا جائعا، يشكو الوحدة والبرد، لا يجد يدا حانية تحنو عليه، ولا قلبا صاحيا يصغي لأنّاته وشُكاته، كما يتوجّه باللّوم إلى الأثرياء من أصحاب القصور والفيلات، الذّين يكنزون الذّهب والفضة، ويجمعون الأموال في الأكياس، في حين هذا المشرّد لا يجد لقمة يسدّ بها جوعه، أو خرقة يتستّر بها من البرد، يقول:

بدا لعيني تاعسٌ ناعس * على الثّرى في الصُّبحِ بالي الثيابْ
جاثٍ على الرّجلين جاني الحشى * والظَّهرُ هاوي الجسمِ ذاوي الشّبابْ
فهاج من حزني ومن لوعتي * كما يهيجُ النّارَ عودُ الثُّقابْ
وقمتُ أدعوهُ على رأسِهِ * لعلّني أحظى ببعضِ الجوابْ
يا أيّها الهاوي على وجهِهِ * تحتَ أديمِ الجوِّ فوقَ التُّراب
يا أيُّهاالملتَمُّ في طمرِهِ * كالقتفذِ انهالت عليهِ الكلابْ
هل أنتَ إلاَّ بشرٌ مثلنا * أمْ أنتَ جنٌّ زال عنكَ الحجاب؟
لا بل فقيرٌ لم تجدْ رحمةً * عندَ ذوي (الفيلات) ذات القبابْ
بطونهُم ملأى وأكياسُهُم * وأنتَ خاوي البطنِ خالي الوِطابْ

ونومهُم طاب وإحساسُهم * وأنتَ مُرتاع بقفرٍ يبابْ

(آل خليفة، (د.ت) صفحة 30)

فالقصيدة تصف لوعة الشاعر وحزنه، وهو يصور حال المحروم ومرارة الفقر في فترة الاحتلال، فالفقير معدم، متهالك البنية، طمر الثياب، ملتفّ على نفسه من البرد (كالقنفذ انهالت عليه الكلاب) كما تصور القصيدة غضب الشاعر على الأغنياء من أصحاب القصور العالية والفيلات الفانية، ينعمون وغيرهم يشقى، ويشبعون وأبناء جلدتهم معدمون وجوعى.

وغير بعيد عن هذه الصّورة، يمعن الشاعر في رصد الظواهر الاجتماعية وتسليط الضوء على الواقع الجزائري، الذي يرزح تحت نير الفقر، ومعاناة الجوع، في أرض خيراتها تصدّر إلى كلّ الأرض، ويعيش الأوربي والفرنسي خاصّة منعّما مرفّها، أما صاحب الأرض وابن البلد فله الله، فهو يعايش ظروفا مزرية وأوضاعا مأساوية، يقول الشاعر في هذا المعنى:

فشا الجوعُ واشتدَّ عُسرُ المعاش * وعادتْ سِنو يوسُفَ الغابره

تفاقمَ كربُ الفقيرِ الكسيرِ * أما عندكم من يدٍ جابره

يشقُّ عليه الرّغيفُ الطّفيف * وتُعوزُهُ الخِرقةُ السّاتره

لقد ودّعَ القلبُ منه الضُّلوع * وطارَ مع الخُبزةِ الطائره

فيا أيُّها الرّافعونَ القصورَ * إلى الجوِّ في الأمّةِ القاصره

و يا أيُّها الوادعونَ النِّيام * على الخزِّ في السُّرَرِ الفاخره

ألا تذكرونَ حفاةً عُراةً * أصابهُم الفقرُ بالفاقره

شكا الطفلُ حرَّ الطّوى واستغاث * وطافت به أمّهُ حائره

ألا من يجيرُ فؤادَ الصّغير * ويُسكنُ لوعتهُ الثائره

(آل خليفة، (د.ت) الصفحات 229-230)

تصوّر القصيدة حال الفقير وتصف بؤسه وفاقته، فالمعيشة غدت عسيرة، والغلاء عمّ كل السلع والمنتجات، وصار حلمه الحصول على خبزة تسدّ جوعه وتسكت فاقته. وأصبح الحصول على عمل يقتات به صاحبه أمرا متعسرا، أما الطفل اليتيم فقد هدّه الجوع والطّوى،

والأم المسكينة الأرملة لا تجد كافلا أو معيلا. وينحو الشاعر باللائمة على أصحاب الدور الفاخرة والقصور الفارهة ؛ الذين يجمعون المال وينفقونه في متع زائفة، وعَرض دنيوي زائل، بينما الفقراء والأيتام والأرامل لا يجدون كسرة خبز تسدّ جوعهم، أو تغنيهم عن السؤال.

إنه واقع مأساوي ولا شك يصوّر واقع الجزائريين في فترة حرجة سبقت اندلاع الثورة التحريرية، وهذا دليل على أنّ معاناة الجزائري من الفقر والبطالة والتشرّد والجوع، من الأسباب التي دفعته إلى الثورة على فرنسا وسياساتها العقيمة، رغبة في تغيير الواقع واستعادة كرامته المسلوبة.

3.3.الواقع الثقافي:

حاربت فرنسا الثقافة الإسلامية واللغة العربية من خلال سياسة التجهيل والإدماج، وفرنسة التعليم؛ حتى يسهل عليها اجتثاث الجزائري من جذوره وهويته وتاريخه " فكان التعليم الفرنسي مثلا – كما يقول مالك حدّاد – يؤكّد في مدارس الجزائر بأنّ آباء الجزائريين

" من أصل فرنسي، وكانوا ينعتون العرب بأنهم عديمو الوفاء، وكانت المهمة الأولى أمام الاستعمار، هي أن يقضي على الشخصية العربية، وقد استنفذ الاستعمار جهدا كبيرا طوال عشرات من السنين في محاولة القيام بهذه المهمة على نحو متّصل ثابت"(شرف، 1991 صفحة 34)

وقد أخذت الحركة الإصلاحية على عاتقها النهوض بالتراث، وتنشيط الحياة الثقافية والعودة إلى منابع الإسلام الصحيحة القائمة على عقيدة التوحيد، وهدي النبي الكريم وسنته وسيرة السلف الصالح.

وانعكس هذا النشاط على الشعر، الذي بدأ يشهد موجة من التطور، والابتعاد عن القوالب الجاهزة، والموضوعات التقليدية المكررة، واللغة الجامدة والمتكلفة " فإن الأثر الذي تركته هذه الحركة في النهضة القومية كان من الأصالة والعمق أن وضع أول خطوة ثابتة في طريق الشعور بالذات وكان من الشمول والإحاطة أن مسّ نواحي الحياة كلّها. بدأت هذه الحركة اجتماعية دينية، وانتهت سياسية وطنية، واستطاعت لأوّل مرّة أن تجمع حولها نخبة من ذوي الثقافة العربية الإسلامية من جميع جهات القطر الجزائري"(ناصر، 2006 صفحة 27)

وكان للنهضة الفكرية والأدبية في المشرق العربي دورها في النهوض بالقصيدة الجزائرية وبعث النهضة الأدبية، فقد كان التأثر جليا بشوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران "

فكان شعر شوقي عند ابن باديس النموذج الذي يضعه لطلابه، ويطلب منهم النظم على منواله شكلا ومضمونا"(ناصر، 2006 صفحة 59)

ففي قصيدة (العروبة أمتنا الكبرى) يثني محمد العيد على مصر، ويذكر تاريخها المجيد، ويشيد بجامعها المعمور " الأزهر" ودوره النهضوي في نشر وإحياء علوم الدين، يقول:

يا مصرُ أنشأَكِ الإلهُ كنانةً * مُثلى سهامُكِ للسِّداد تُسدّدُ
إنّ الذّي حلاّكِ حليةَ خُلدِهِ * لك بالحضارةِ من قديمٍ يشهدُ
هذا قديمُك كان يزخرُ بالغنى * وبسدِّكِ العالي غدًا سيجددُ
فالنيلُ سوف يُنيلُ أرضَكِ ثروةً * كبرى بها شأنُ الصّعيد سيصعدُ
إنّ (الكنانيَّ) المبارك عندنا * لَيُحجُّ كالبيتِ العتيقِ ويُقصدُ
كم فيه من متعلّمٍ يجني لنا * ثمَرَ العلومِ وناسكٍ يتعبَّدُ

(آل خليفة، (د.ت) صفحة 207)

فمصر بلد النيل والحضارة الضاربة في أعماق التاريخ، وهي أرض اتصل مجدها بالأزهر الشريف، وما فيه من علوم وأعلام على مرّ الدهور، نشروا الإسلام ومختلف العلوم. ولأعلامها ومثقفيها دورهم المشهود في النهضة والتنوير، فهم يشبهون بيت الله تعالى في نشر الهدى والفلاح، وبثّ روح الإيمان والإسلام.

ويشيد الشاعر بمنارات العلم، مدارس الجمعية الحرّة التي حافظت على اللغة العربية، وصانت هوية الجزائر الإسلامية، في هذه القصيدة يثني على مدرسة للغة العربية بباتنة، ودورها في تكوين جيل متشبع بتاريخه ودينه مفتخرا بهويته، متسلحا بالأخلاق الكريمة، ويدعو المعلم إلى تحمّل مسؤوليته التاريخية في إخراج جيل متنوّر بالعلم وحسن السجايا، يقول:

بنيتَ لنشئِكَ الميمونَ حصنًا * يقِيهِ الزّاحفاتِ من الدّنايا
ويَنشئُـــهُ أبيًّايعـــربيًّا * حنيفيَّ العقائدَ والطّوايا
تبوَّأهُ لانتاجٍ وسعيٍ * كما تتبوَّأُ النّحلُ الخلايا
نفوسُ النّشءِ تقبلُ كلَّ خيرٍ * فقد جُبلت على الفطَر النّقايا
فثقِّفْ أيُّها الأستاذُ واطبعْ * نفوسَ النّشءِ بالصُّورِ البهايا

ولا تيأسْ من الثّمر المُرجَّى * فإنّ ثراكَ مُخضَرَّ الحثايا

(آل خليفة، (د.ت) الصفحات 199–200)

ويعتز الشاعر بمدارس الجمعية التي نهضت بالحياة الثقافية، وحاربت الجهل والبدع والخرافات، كما أنها أنشأت هذا الجيل الذي فجّر الثورة فيما بعد وحرّر البلاد من أغلال هذا المحتل البغيض " لقد كانت المدارس الحرّة المنتشرة في أنحاء الجزائر خطوة أولى نحو تحرير البلاد، فهي الثكنة التي يتخرّج منها الجيل الصاعد الذي سيحمل مشعل الثورة ويخلص الشعب من استبداد السلطة الدخيلة" (شعباني، (د.ت) صفحة 31).

يقول الشاعر في قصيدته " إلى العلم ":

أراكَ بلا جدوى تضِجُّ من الظُّلمِ * إلى العلمِ إن رُمتَ النّجاةَ إلى العلمِ

فخض في ميادين الحياةِ مكافحًا * بمالكَ من عزمٍ ومالكَ من حزمِ

رعى اللهُ في أرضِ الجزائرِ نهضةً * مباركةً في العلمِ تسمو إلى النّجمِ

وتنشئَ للفُصحى مدارسَ عدَّةً * مُشيّدةَ البُنيانِ محكمةَ الدَّعمِ

(آل خليفة، (د.ت) صفحة 186)

ويظهر الشاعر محبته للشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي أنشأ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سنة 1931، وكان الشاعر من الأعضاء المؤسسين هو الآخر، كما كان شاعرها الصدّاح، وفي هذه الأبيات يشيد محمد العيد برائد النهضة العلمية، ويثني بختمه لتفسير كتاب الله تعالى، يقول:

بِمثلكَ تعتزُّ البلادُ وتفتخرُ * وتزهرُ بالعلمِ المنيرُ وتزخرُ

طبعتَ على العلمِ النُّفوس نواشئًا * بمخبرِ صدقٍ لا يدانيهِ مِخبرُ

نهجتَ لها في العلمِ(نهجَ بلاغةٍ) * ونهج مُفاداةٍ كأنَّكَ (حيدرُ)

يراعُك في التحريرِ أمضى من الظُّبى * وأقضى من الأحكامِ أيَّانَ يُشهرُ

ودرسكَ في التّفسيرِ أشهى من الجَنى * وأبهى من الرَّوضِ النّضيرِ وأبهرُ

ختمتَ كتابَ الله ختمةَ دارسٍ * بصيرٍ له حلُّ العويصِ مُيسَّرُ

فكم لك في القرآن فهمٌ موفّقٌ * وكم لكَ في القرآن قولٌ محرَّرُ

وبيَّنتَ بالقرآنِ فضلَ حضارةٍ * أقرَّ لها كسرى وأذعنَ قيصرُ

(آل خليفة، (د.ت) صفحة 146)

فالشيخ بن باديس هو مثال العالم العامل، الذي أفنى حياته من أجل إحياء علوم الدين، وتخليص أمّته من البدع والخرافات، وإيقاظ العقول من غفلتها، وتعليم أبناء الجزائر لغتهم ودينهم، وتحريرهم من الأوهام والضلالات.

وهو في تفسيره لكتاب الله تعالى، يظهر فهمه للدين واستنباطه للأحكام، وتبحره في البيان، ووقوفه على أقوال السابقين، وإلمامه بمختلف تفسيرات الأولين، مع مقدرة دقيقة في التأويل، وتأمل وحسن تثبت، وتوفيق من الله تعالى بشرح ما غمض منه، وبيان ما أشكل فيه. ومقدرة فريدة في الغوص بين آياته وكلماته، بعلم مكين وتفسير رباني أمين.

ودفاع الشيخ عن الإسلام، ضدّ الحاقدين والمتعصبين من الأوربيين؛ ومنهم آشيل الذي حمل على القرآن حملة شعواء، يريد تشويه نصوصه وأحكامه، والطعن في رسالته التي جاءت لهداية البشرية جمعاء، وإخراجهم من الظلام إلى النور، يقول الشاعر في الرد عليه:

هيهاتَ لا يعتري القرآن تبديلُ * وإن تبدّلَ توراةٌ وإنجيلُ
قل للذّين رموا هذا الكتابَ بما * لم يتفق معه شرحٌ وتأويلُ
فاعزوا الأباطيلَ للقرآنِ وابتدعوا * في القول هيهات لا تجدي الأباطيلُ
ماذا تقولون في آيٍ مفصّلةٍ * يزيّنُها من فمِ الأيّامِ ترتيلُ ؟
كلامهُ الصدقَ لا مينٌ ولا كذبٌ * وحكمهُ الحقُّ لا ميزٌ وتفضيلُ
ولا احتيال ولا غمصٌ ولا مطلٌ * ولا اغتيال ولا نغص وتنكيلُ
إن هو إلاّ هدىً للنّاس منبلجٌ * ضاحي المسمّى أغرّ الاسمِ تنزيلُ
ما بال (آشيل) في(الديبش)يسخر من * آيات محكمهِ لا كان آشيل؟
هذا(ابن باديس) يحمي الحق متئدا * كذاك يتّئذ الشمُّ الأماثيلُ
دمغتَ أقوالَ آشيل كما دمغتْ * أبطالَ أبرهةِ الطيرُ الأبابيلُ

(آل خليفة، (د.ت) الصفحات 81-82)

4.خاتمة:

نخلص إلى أنّ الشاعر كان مشاركا هموم أمته، وأوجاعها وآلامها، لذلك رصد مختلف القضايا، وصوّر الواقع السياسي، إذ كانت الجزائر ترزح تحت نير استعمار بغيض، تعاني العبودية والاستبداد والظلم، وقد رصدنا أهم النتائج في النقاط الآتية:

-السياسة الاستعمارية الفرنسية قامت على الاستيطان، وطمس الهوية الوطنية، وممارسة سياسة الفقر والتجهيل والإبادة الجماعية.

-الواقع الجزائري هو ذاك الواقع الذي عايشته الجزائر إبّان فترة الاحتلال الفرنسي على جميع الأصعدة. في حين الواقعية هي تيار فكري اجتماعي، ينطلق من فكر اشتراكي، يسعى إلى تحقيق العدالة بين جميع طبقات المجتمع.

-القصيدة الجزائرية رصدت الواقع الجزائري، وصوّرت أهم مظاهره من فقر وجوع واستبداد.

-محمد العيد آل خليفة ينتمي إلى التيار الإصلاحي الوطني، وهو تيار اهتمّ بالتراث العربي الإسلامي ونافح عنه، واعتمد على التعليم والتربية في توعية المجتمع، واستنهاض الهمم والعزائم.

-صوّر الشاعر ليل الاستعمار الطويل وسجنه الثقيل، وعبّر عن أجواء نفسه الحيرى القلقة، ودعا إلى الثورة والكفاح من أجل الحرية والخلاص.

-رصد الشاعر معاناة الجزائريين من خلال تصوير مجازر 8 ماي 1945، فكانت مشاعر الحزن والألم ممتزجة بحنقه على المستعمر الغاشم، والتغني بالحرية والتلويح باقتراب فجر الاستقلال.

- صوّرت القصيدة حال المشرّدين والفقراء والمساكين، وبؤس اليتامى والثكالى والمحرومين، كما أظهرت المشاعر الإنسانية الفيّاضة عند الشاعر ورحمته بالضعيف واليتيم.

-الدعوة إلى نشر العلم وبثّ الوعي الفكري في أوساط الطلاب، والاهتمام بمهنة المعلم، لأنه عمود التربية وركيزة البناء والتغيير.

- إظهار الروح القومية والإسلامية في شعره، والتغنّي بجمعية العلماء والثناء على رجالاتها؛ وخاصة الشيخ العلاّمة عبد الحميد بن باديس، ودوره النهضوي الإصلاحي في نشر العلم وتحرير البلاد من الاستعباد.

5.الهوامـــش:

1. أحمد بن الأمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، نقلا: فايز ترحيني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1432 هـ، 2011م.
2. حلمي بدير، الاتجاه الواقعي في الرواية العربية الحديثة في مصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2002 م.
3. س.بيتروف، الواقعية النقدية في الأدب، ترجمة: شوكت يوسف، منشورات الهيئة العامة السورية للكتابة، وزارة الثقافة، دمشق ن 2012.
4. شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، مصر، ط6، (دت).
5. عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل، بيروت، ط1، 1411هـ، 1991م.
6. عبد الله ركيبي، في الشعر العربي الجزائري الحديث، مكتبة الإسكندرية، (دت).
7. محمد العيد آل خليفة، الديوان، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
8. محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925- 1975.
9. محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2006 م.(نقلا عن: أحمد بن عمر، الحالة الاقتصادية في الجزائر، المنار، ع4، 1951/5/21)
10. الوناس شعباني، تطور الشعر الجزائري منذ 1945 حتى سنة 1980، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر(دت).